حوليات جمعية كليات الآداب المجلد 1، العدد 1، 2004، ص ص 135- 152

المماثلـــــــة: دراسـة صوتيـة تشكيلية

رسلان بني ياسين*

ملخص

إن أصوات الكلمة قد يؤثر ببعضها ببعض على أن نسبة التأثر تختلف من صوت إلى آخر بحيث أن الصوت الضعيف يخلع صفته إلى الصوت القوي ويندمج معه ليكون قريباً في الصفد والمخرج. لذا نجد بعض الأصوات قد يتأثر في غيره على سواه من الأصوات الأخرى. والمماثلة هي مجاورة هذه الأصوات بعضها في البعض، فلهذا نجد هذا التأثر. ويمكن أن نسمي هذا التأثر بالانسجام الصوتي. وهذا ليس مقصوراً على الأصوات الساكنة بل يكون أيضاً في أصوات اللين، هذا وقد استعرضت في هذا البحث المماثلة مقارنة بين القدماء والمحدثين وأنواع المماثلة وبعض الظواهر التي لها علاقة بالمماثلة.

مقدمة

تتأثر الأصوات اللغوية، بعضها ببعض، عند النطق بها في الكلمات والجمل، فتتغيّر مخارج بعض الأصوات أو صفاتها، لكي تتفق في المخرج أو في الصفة، مع الأصوات الأخرى المحيطة بها في الكلام، فيحدث عن ذلك نوع من التوافق والانسجام، بين الأصوات المتنافرة في المخارج أو في الصفات، ذلك أن أصوات اللغة تختلف فيما بينها في المخارج، والشدّة والرخاوة، والجهر والهمس، والتفخيم والترقيق، فإذا التقى في الكلام صوتان من مخرج واحد، أو مخرجين متقاربين، وكان أحدهما مجهوراً والآخر مهموساً مثلاً، حدث بينهما شد وجذب، كل واحد منهما يحاول أن يجذب الآخر ناحيته، ويجعله يتماثل معه في صفاته كلها أو في بعضها.

© جميع الحقوق محفوظة لجمعية كليات الآداب في الجامعات الأعضاء في اتحاد الجامعات العربية 2004

* استاذ مشارك في قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب، جامعة اليرموك، اربد، الاردن.

ولذلك يمكن القول إن قانون المماثلة (Assimilation) يُعْنى بتأثر الأصوات المتجاورة في الكلام، وميلها إلى الاتفاق في المخارج والصفات، بغية الانسجام الصوتي، واقتصاداً في الجهد الذي يبذله المتكلم ذلك لأن أصوات اللغة تختلف فيما بينها كما أشرنا.

وعلى الرغم من أن المماثلة مبحث حديث، إلا أن له جذوراً قديمة عرفها الأقدمون من اللغويين كما عرفها المحدثون.

المماثلة بين القدماء والمحدثين:

عند القدماء

تُعَد المماثلة تطوّراً لمصطلحات صرفيّة وصوتيّة عرفها اللغويون القدماء، ورسوها، من مثل: الإبدال والإعلال والإدغام والإتباع وغيرها؛ لأن هذه المصطلحات تتضمّن تبدلات تكيّفيّة للصوت بسبب مجاورته لأصوات أخرى.

وللمماثلة تسميات متعددة عند القدماء، تقترب اقتراباً كبيراً من المفهوم الحديث لها، منها المضارعة، والتقريب، والتآخي والمناسبة، وغيرها.

فهي عند سيبويه مثلاً (المضارعة) التي ورد ذكرها في قوله: "هذا باب الحرف الذي يُضارَع به حرف موضعه، الحرف الذي يضارع به ذلك الحرف وليس من موضعه" [(1)]. ثم ضرب لنا أمثلة تحت هذا الباب تؤكد لنا فهمه الدقيق لهذه المسألة، كما أطلق عليها اسم (التقريب) في قوله: "فإن كانت سينٌ في موضع الصاد، وكانت ساكنة لم يجز إلا الإبدال إذا أردت التقريب وذلك في قولتك في التسدير: التزدير، وفي يسدل ثوبه ويزد لـه"[(2)].

وهي عند ابن جنّي الإدغام الأصغر الذي منه التقريب والإمالة وغيرهما[(3)]. وابن جنّي لم يكتفِ بذكر أنواعها وتعريفها بل ضرب أمثلة كثيرة على ذلك، ثم قال: "وجميع ما هذه حالة مما قرّب فيه الصوت من الصوت جارٍ مجرى الإدغام بما ذكرناه من التقريب، وإنما احتطنا بهذه السمة التي هي الإدغام الصغير لأن في هذا إيذاناً بأن التقريب شامل للموضعين، وإنه هو المراد المتبقي في كلتا الجهتين، فاعلم ذلك"[(4)].

وهي عند ابن يعيش "التقريب" وذلك في حديثه على قولهم: أشدق وأجدق، إذ يعلّل لهذه المسألة بقوله: "لأن الدال حرفٌ مجهورٌ شديدٌ والشين مهموسٌ رخـو فهو ضد الدال بالهمس والرخاوة فقرّبوها من لفظ الجيم لأن الجيم قريبة من مخرجها موافقة الدال في الشدة والجهر"[(5)].

وهي عند الأستراباذي (التجانس والتقريب)، وذلك من خلال قوله: "السين حرفٌ مهموسٌ والدال مجهورٌ، فكرهوا الخروج من حرف إلى حرف ينافيه، لاسيما إذا كانت الأولى ساكنة لأن

الحركة بعد الحرف، وهي جزء حرف لين حائل بين الحرفين فقرّبوا السين ومثلها في الصفير وتوافق الدال في الجهر فتجانس الصوتان"[6]. وهذا عند حديثه عن قلب السين زاياً.

وهي عنده أيضاً (المضارعة)، يقول: "ولا يجوز هنا أن نشرب السين صوت الزاي كما يفعل ذلك في الصاد نحو (يصدر) فضارعوا لئلا يذهب الإطباق بالقلب"[7]. ويقول كذلك: "ومن ضارع، أي نحى بالصاد نحى الزاي ولم يقلبها زاياً خالصة، فالمحافظة على فضيلة الإطباق يقلبها[8]. وقد أطلق عليها أيضاً مصطلح المناسبة والتناسب وذلك أثناء حديثه عن الإمالة إذ جعل سببها مناسبة الكسرة أو الياء[9].

وكذلك الحال عند السيوطي الذي أطلق عليها اسم التناسب، إذ جعل سبب تقارب الأصوات من أجل إحداث التناسب بينها[10].

وقد أطلق عليها الأشموني مصطلح (المشابهة)، يقول في أثناء حديثه عن قلب النون الساكنة ميماً عند الباء وهو ما عُرف في علم التجويد بالإقلاب: "وموجب هذا القلب: أن الباء بعدت عن النون، وشابهت أقرب الحروف إليها وهي الميم لأن النون والميم حرفا غنّة، فلما بعدت عن الباء لم يمكن إدغامها فيها ولمّا قربت بمشابهة الغريب عنها لم يحسن إظهارها فأوجبت التخفيف أمراً آخر وهو قلبها ميماً لأنها أختها في الغنّة"[11].

وكما أن النحاة قد عرفوا (المماثلة)، وأطلقوا عليها تسميات مختلفة، فقد عرّفها أيضاً علماء القراءات وأطلقوا عليها تسميات أخرى، قد تكون أقرب من مصطلحات النحاة، فقد أطلق عليها ابن خالويه "التآخي" وذلك في أثناء حديثه عن قلب السين صاداً في قوله تعالى "الصراط" تعالى "الصراط" إذ جعل السبب في ذلك لتؤاخي السين في الهمس والصفير، وتؤاخي الطاء في الإطباق، لأن السين مهموسة والطاء مجهورة، ثم أعاد الكرّة في نفس السياق عند الحديث عن قراءة من أشمّ الزاي، إذ إن الزاي تؤاخي السين في الصغير وتؤاخي الطاء في الجهر"[12].

وهي عند مكي بن أبي طالب كذلك، فقد ذكر "أن من أبدل السين صاداً إنما فعل ذلك لمؤاخاة الطاء في الإطباق والتصعيد، ليكون عمل اللسان في الإطباق والتصعيد عملاً واحداً[13].

وهكذا يتبين أن علماء اللغة والقراءات القدماء مدركين لحقيقة المماثلة أو التجانس، وذلك من قبيل تأثير الأصوات بعضها في بعض. فجاء وصفهم للأصوات دقيقاً حتى لا يصيب النطق القرآني شيء من التغير الصوتي[14].

عند المحدثين

على الرغم من أن القدماء عرفوا (المماثلة)، وأطلقوا عليها تسميات مختلفة، فإن دراستهم لها تبقى إشارات عابرة متفرّقة تحت أبواب مختلفة، فالمماثلة بمفهومها الحديث الجامع تبقى مبحثاً حديثاً، لم تدرس تحت باب واحد إلا عند المحدثين من علماء اللغة. فقد تطوّر المحدثون في دراستها، فاستخدموا أحدث الأجهزة والمختبرات الصوتية لتكون نتائجهم في تفسير هذه الظاهرة وغيرها من الظواهر الصوتية دقيقة، مبنية على ما لا يمكن الطعن فيه أو التشكيك بصحته. ومن هنا خرج المحدثون بعدّة تعريفات لهذه الظاهرة، تلتقي في كليتها تحت مفهوم واحد ثابت.

فمن عرّفها مثلاً علي عبدالواحد وافي الذي يقول: "المماثلة هي تفاعل أصوات الكلمة بعضها مع بعض، وذلك أن الأصوات المتجاورة والمتقاربة في الكلمة يحدث بينها أنواع كثيرة من لتفاعل، فتارة يلتصق أحدهما بالآخر، فتنقل الأصوات التي كانت تفصل بينها إلى ما بعدها وهذا ما اصطلح عليه بظاهرة "النقل المكاني" وتارة يتحول أحدهما إلى صوت آخر من نوع الصوت الآخر، وهذا ما أسماه ظاهرة "التشاكل"، وأحياناً يمتزجان معاً، فيتكوّن من امتزاجهما صوت ثالث فيه صفات من كليهما، وأحياناً يتلاشى أحدهما في الآخر، فيبقى الثاني وحده"[14].

فالتحوّل الذي أشار إليه إنما هو النوع الثاني من أنواع التفاعل الذي أسماه "بظاهرة التشاكل" وهو ما عرّفه إبراهيم أنيس بعملية التأثر والتأثير، وذلك أن الأصوات في تأثرها تهدف إلى نوع من المماثلة أو المشابهة بينهما ليزداد قربها مع مجاورتها في الصفات والمخارج[15].

ويعرّفها دانيال جونز بقوله: هي "عملية استبدال صوت بآخر تحت تأثير صوت بآخر تحت تأثير صوت ثالث قريب منه في الكلمة أو في الجملة"[16]، وذكر أن المماثلة قد تتسع لتشمل الحالات التي يتم فيها فناء أحد الصوتين في الأخر. بحيث يؤلفان صوتاً واحداً وسمي هذا النوع (Coalescent Assmililatiesing Assimilation) والذي يقابل الإدغام عند العرب.

وهذا يعني أن المماثلة درجات، فقد لا يعدو أن يكون مجرّد انقلاب الصوت من الجهر إلى الهمس أو العكس، وأقصى ما يصل آليه الصوت في تأثره بما يجاوره أن يفنى في الصوت المجاور وهو الإدغام.

ويعرف محمد الخولي المماثلة بقوله: "هي تعديل صوت ليماثل صوتاً آخر مماثلة كاملة، أي أن يتحوّل الصوت المتأثر إلى مثيل الصوت المؤثر وهذا ما أسماه بالمماثلة التامّة. وهي عنده أيضاً أن يتعدّل صوت جزئياً ليماثل صوتاً آخر، مثال ذلك كلمة "مسطرة" حيث تنطق (السين) كأنها (صاد) متأثرة بصوت (الطاء) [18]. وهذا ما عناه أحمد مختار عمر حين عرّف المماثلة بقوله: "إنها تعديل الصوت الموجود في سلسلة الكلام بتأثير صوت مجاور"[19].

ومن هنا ذهب بعض المحدثين إلى تسمية هذا التأثر القائم وراء مجاورة الأصوات لبعضها (بالعدوى التأثريّة) وأن يسمّي هذه الدرجة من التأثر بإمكانية التكيّف والانسجام الصوتي اللغوي[20].

وظاهرة المماثلة تعتمد على طبيعة الأصوات المتجاورة في سلسلة الكلام، ففي حالة التباعد بين الصوتين، ينطق كل منهما كما هو، بكل خصائصه دون أدنى تغيير ناشئ عن التجاور، أما في حالة التجانس أو التقارب فإن أحد الصوتين يؤثر في الآخر ويمنحه شيئاً من خصائصه، أو كل خصائصه[21].

ويجب أن يؤخذ بعين الاعتبار أن ظاهرة المماثلة تقوم أيضاً على مخالفة تلك الأصوات المتجاورة، فحتى تكون المماثلة لابد أن يسبقها مخالفة بين الأصوات، تماماً كما هو الحال في المواد المحمّلة بالكهرباء، يقول علي عبدالواحد وافي: "فتجاور مادتين من هذه المواد يحدث بينهما تجاذباً إذا كانتا مختلفتين في نوع كهربائهما بأن كانت إحداهما موجبة والأخرى سالبة، كذلك يفعل أحياناً لتجاور أو التقارب بين الصوتين"[22].

علـّـة المماثلـة

إن السهولة وطلب التخفيف أثناء النطق بالأصوات هو السرّ الكامن وراء وجود مثل هذه الظاهرة في اللغة العربية وغيرها من لغات العالم الأخرى. وقد عرف الأقدمون هذا وعلّلوه. يقول سيبويه: "وإن ما دعاهم إلى أن يقرّبوها ويبدّلوها أن يكون عملهم من وجهٍ واحد، وليستعملوا ألسنتهم في ضرب واحد"[23].

ولما كان الإدغام نوعاً من أنواع المماثلة، فإن الغرض منه هو الغرض نفسه من المماثلة، يقول ابن يعيش أن الغرض من الادغام: "هو طلب التخفيف لأنه ثقل عليهم التكرير والعود إلى صرف بعد النطق به وصر ذلك ضيقاً في الكلام ... فلما كان تكرير الحرف كذلك في الثقل حاولا تخفيفه بأن يدغموا أحدهما في الآخر فيضعوا ألسنتهم على مخرج الحرف المكرر وضعة واحدة، ويرفعوا بالحرفين دفعة واحدة، فحاولا تخفيفه بأن يدغموا أحدهما في الآخر[24].

ويبدو الأمر أكثر وضوحاً عند مكّي بن أبي طالب عندما علّق على حجة من قرأ (الصراط) بإبدال السين صاداً في قوله "فذلك أسهل وأخف"[25].

وإذا كان القدماء قد أدركوا هذا الغرض بفطرتهم وذوقهم اللغوي الصافي، فإن المحدثين قد أثبتوا هذا بطرقهم العلمية الحديثة، ذاهبين إلى أن الهدف الصوتي وراء هذا التأثر هو تحقيق نوع من التشابه أو التماثل بغيد التقارب في الصفة والمخرج، اقتصاداً في الجهد العضلي[26].

فالمتكلم حين يتكلّم قد يعدل أو يغير صوتاً ليماثل صوتاً آخر مجاوراً له بهدف توفير الجهر عن طريق الاستمرار في استعمال ناطق واحد[27].

ويقول علماء اللغة كذلك في أسباب أخرى تعود إلى تطوّر لهجات الكلام الحديثة في اللغة العربية التي اكتسبت قوانين جديدة لتحقق الانسجام والتماثل بين أصواتها[28].

أنــواع المماثــلــة

قسّم علماء اللغة المحدثون المماثلة إلى عدّة أنواع، وذلك لاعتبارات متعددة، فقد اعتمدوا أساس المجاورة ومداه بين الصوت المؤثر والصوت المتأثر، ثم اعتمدوا أساس قوي التأثير والتأثر، ثم عمدوا إلى اتجاه هذا التأثير، وعلى هذا الأساس وضعت أنواع المماثلة من خلال ربط هذه الأسس معاً، وفيما يلي بيان ذلك:

أولاً: المماثلة من حيث مدى التجاور بين الأصوات المتماثلة

تقسم المماثلة بناءً على هذا الأساس إلى نوعين:

أ- المماثلة المباشرة (المتصلة).

ب- المماثلة غير المباشرة (المنفصلة).

أما المباشرة: ففيها يكون الصوتان المتأثر والمؤثر متباشرين، أي متصلين، دون لآن يكون هناك فاصل –صامت وصائت- يفصل بينهما؛ ولذلك يسميها بعضهم مماثلة تجاورية أو متاخمة [29].

ومن أوضح الأمثلة على هذا النوع أن تاء الافتعال تتأثر دائماً بالدال أو الطاء قبلها فتقلب تاء الافتعال دالاً أو طاءً، وذلك في مثل: (ادّعى) التي أصلها (ادْتعى) فقد تأثرت تاء الافتعال وهي حرفٌ مهموس، بالدال التي هي من نفس المخرج غير أنها مجهورة، فقلبت تاء الافتعال دالاً وفنيت بالدال السابقة لها مُشكّلة حرفاً مشدداً.

وأمّا المماثلة غير المباشرة أو المنفصلة، ففيها يكون الصوتان المتأثر والمؤثر مفصولين بصامت أو صائت أو أكثر ومنهم من اصطلح على تسميتها (بالمماثلة التباعدية) أو غير المتاخمة أو المماثلة في حالة الانفصال[30].

ومن أوضح الأمثلة على ذلك أن السين تفخم إذا تبعها صوت من الأصوات المفخمة كالطاء مثلاً في (ســراط) و (مسيطر) لذا تنطق السين فيهما صاداً.

ثانياً: المماثلة من حيث اتـجـاه التـأثيـر

وتقسم إلى قسمين:

أ- المماثلة التقدميّة (المقبلة).

ب- المماثلة الرجعية (المدبرة).

أما التقدّمية فهي أن يؤثر صوت سابق، بصوت لاحق له، أي أنها المماثلة التي يتجه فيها التأثير إلى الأمام، وهذا يعني أن صوتاً ما يكون مكيّفاً مؤثراً وهو الصوت السابق، والصوت اللاحق يكون متكيّفاً متأثراً [31].

ومن الأمثلة على ذلك أن تاء الافتعال تقلب دالاً بعد الزاي التي هي صوت مجهور، لذلك يؤثر هذا الصوت (الزاي) بالتاء المهموسة فتقلب دالاً لتناسب الزاي في الجهر كما في مزدحم وازدحم التي أصلها ازتحم مزتحم.

أما المماثلة الرجعية (المدبرة) فهي عكس النوع الأول، وذلك أن صوتاً لاحقاً يؤثر بصوت سابق له. لهذا يكون التأثير متجهاً إلى الخلف وهذا يعني أن الصوت اللاحق يكون مكيّفاً مؤثراً وال صوت السابق متكيّفاً متأثراً.

ومن أوضح الأمثلة على هذا أن النون من (أنْ وإن ومِنْ وعن) تتأثر بالميم واللام التي تليها، فتقلب ميمياً أو لاماً لإحداث المماثلة، وذلك مثل: (إمّا) التي أصلها (إن ما) و (أمّا) التي أصلها (أن ما).

وقد أشار برجستراسر[32] إلى نوع ثالث من المماثلة أطلق عليه اسم (المماثلة المتبادلة) أو التأثير المتبادل، وفيه يؤثر الصوتان السابق واللاحق ببعضهما البعض فيقلبان صوتاً جديداً يكون وسطاً بينهما.

ومن الأمثلة على ذلك صيغة افتعل من الفعل (ذكر) التي تصبح (اذّكر) فقد تشابهت أو تماثلت فاء الفعل (الذال) مع تاء الافتعال فاستبدلتا حرفاً ثالثاً مخالفاً لهما هو الدال (أدّكر) والدال حرفٌ وسط بين الذال والتاء، إذ يجمع صفات من الصوتين كليهما، فيكون كالنحت من شيئين، فقد شابهت الدال التاء في المخرج والشدة (أو الانفجار) وخالفتها في الجهر، وقد شابهت الذال في الجهر. وهذا ما سوغ استبدالهما بحرف الدال التي هي حرف وسط بينهما، وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدلّ على موسيقيّة عالية عرفت بها العربية حين التعامل مع أصواتها.

ثالثاً: المماثلة من حيث قـوة التـأثيـر

وهي من هذا المنطلق نوعان:

أ- كليّة. ب- جزئيّة.

أما المماثلة الكليّة، ففيها يتأثر الصوت المتأثر بالصوت المؤثر تأثيراً كليّاً كاملاً يصل درجة يتحول فيها الصوت المتأثر إلى جنس الصوت المؤثر.

فالأصوات المتجاورة تختلف في نسبة تأثيرها بعضها ببعض، فقد لا يعدو التأثر أن يكون مجرّد انقلاب الصوت من الجهر إلى الهمس أو العكس، أو أن ينتقل مجرى الهواء من الفم إلى الأنف أو العكس وغير ذلك من التأثيرات الجزئية.

وأقصى ما يمكن أن يصل إليه الصوت في تأثيره بما يجاوره أن يفنى في الصوت المجاور فلا يترك له أثراً. وهو ما أصطلح على تسميته (الإدغام).

ومن ذلك أن الضمة في ضمير الجر الغائب المفرد (هُ) والجمع المذكر (هُم) والجمع المؤنث (هُنّ) والمثنى (هُما)، تتأثر بما قبلها من كسرة طويلة أو قصيرة أو ياء، فتقلب الضمة كسرة، ومن ذلك:

عليهُـم ---- تصبح (عليهِـمْ)

برجلهُ ---- تصبح (برِجلِهِ)

أما المماثلة الجزئية ففيها يقتصر التأثير على تغيّر صفة أو مخرج الصوت المتأثر لتماثل صفة أو مخرج الصوت المؤثر دون أن يقلب الصوت إلى الصوت المتأثر نفسه فقد يكون ا لتأثير بتغييـر مجرى الهواء مثلاً، أو بتغيير صفة الهمس في صوت ما، أو الجهر مثلاً ... وهكذا.

ومن تاء الافتعال تقلب دالاً إذا سبقت بزاي، أي أن التاء تتحوّل التاء تحوّل إلى نظيرها المجهور وهو الدال لتماثل الصوت السابق لها وهو الزاي المجهورة وذلك مثل (ازدجـر).

وهذا مخطط تشجيري للمماثلة كما وردت:

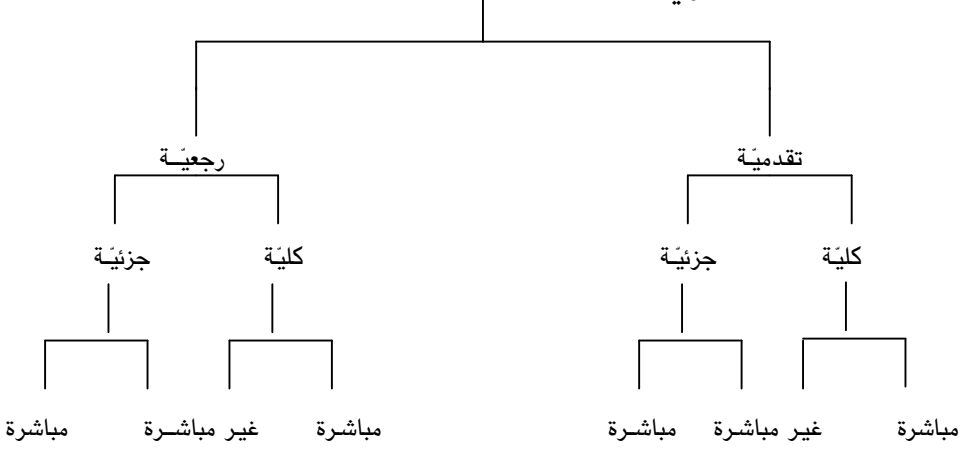

مظاهر المماثـلـة والتطبيـق عليها:

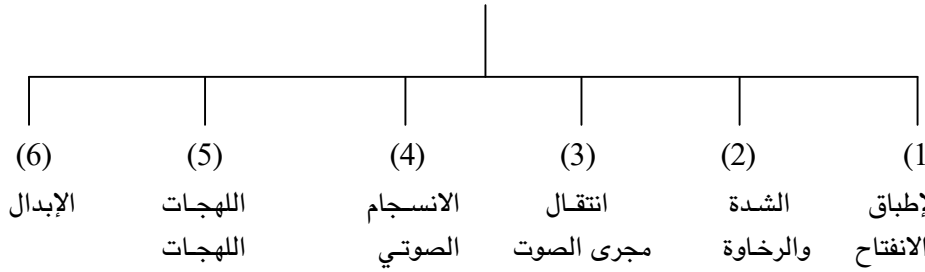

1- الإطبـاق والانفتاح

الأصوات المطبقة هي (الصاد والضاد والطاء والظاء)، وهذه الحروف الأربعة إذا وضعت لسانك في مواضعهن انطبق لسانك من مواضعهن إلى ما حاذى الحنك الأعلى من اللسان ترفعه إلى الحنك، فإذا وضعت لسانك فالصوت محصور بين اللسان والحنك إلى موضع الحروف[33]، لذلك سمّيت (الحروف المطبقة).

وأما الأصوات المنفتحة فهي الأصوات التي ينفتح ما بين اللسان والحنك عند النطق بها.

وللإطباق والانفتاح دور هام في التماثل ذلك أن الأفعال التي تبدأ بأحد أصوات الإطباق المعروفة (ص، ض، ط، ظ) المنقولة إلى صيغة افتعل تتحوّل التاء فيها وهي صوت منفتح إلى نظيره الطاء المطبق تحت تأثير مجاورته لأحد الأصوات المطبقة المذكورة. ويكون التأثير فيها تأثيراً مقبلاً، إذ يتأثر الثاني بالأول فمثلاً (اصتبر واضترب واطتلب واظتلم) جميعها تصير بالمماثلة (اصطبر واضطرب واطّلب واضطلم) إذ تقلب التاء إلى حرف يكون أقرب إلى فاء الكلمة من التاء فتقربها إلى حروف الإطباق الأربعة بأن تجعل في التاء إطباقاً فتصير (طاءً)، لأن الطاء هو التاء بالإطباق.

وقد عالج علماء العربية ما قالته العرب في (سُقتُ والسوق وسبقت وسقر) على الترتيب (صقت والصوق وصبقت وصقر) لوقوع السين قبل الصوت المستعلي فينقلب إلى نظيره المطبق على حد ما قال ابن جني[34].

وهذه المماثلة كليّة مقبلة متصلة، ذلك أن التاء –تاء الافتعال- تتأثر بالطاء قبلها فتصبح طاء مثلها عندما نبني "افتعل" من الفعل الماضي الذي فاؤه طاءً، نحو طرد وطلع وطلب ...

ومثل هذا يقال في صيغة افتعل من الفعل الذي فاؤه دال، مثل (دعـا) و (دان)، إذ نقول: (أدّان)، و (ادّعى)، عندما نبنيها على صيغة افتعل، والأصل أدتان وادتعى، فاتصلت التاء مباشرة بنظيرها المجهور، فجهرت –أي أصبحت دالاً- لتماثل الدال قبلها.

ولا ينحصر تأثّر التاء بالطاء عند بناء صيغة افتعل فحسب، بل ينسحب ذلك على بناء صيغة (فَعَلْتُ) من الفعل الذي لامه (طاء) إذ تتأثر التاء عندئذٍ بالطاء قبلها فتصبح (طاء) نحو فـ (أحطت --- أحطُ)، وذلك في مثل قوله تعالى: **"أحطت بما لم تحط به"**[35]. فعطت هنا تنطق (أحـطُ).

وقد روى الفراء أن التاء في (خبطت)، تخرج في لغة تميم خبطُ، أي بطاء مشـدودة[36].

قال علقمة الفحل: [37].

بالكثرة وفي كلَ حيٍّ قد خبطّ بنعمة فحقُ

وقد شبه بعض العرب ممن ترضى عربيته حروف الإطباق (الصاد والضاد والطاء والظاء) في فعلت بهن في "افتعل" لأنـه يُبْنى الفعل على التاء، ويُغيِّر الفعل فتسكّنُ اللام كما أسكن الفاء في افتعل ولم تترك الفعل على حاله في الإظهار فضارعت عندهم افتعل، وذلك قولهم فَحَصْطُ برجلي وحِطْطُ عنه وخبطُه وحفظطُهُ، يريدون: فحصتُ وحطتُ وخبطتُهُ وحفظتُهُ[38]، ويُفهم من ذلك أن التاء متى اتصلت في النطق بالطاء وغيرها من حروف الإطباق، اتصالاً مباشراً، نطقت طاء، لأنه يصعب جداً الجمع بين المطبق حيث يكون مؤخر اللسان في أعلى سقف الحلق عند النطق بهذه الحروف الاستعلائية المذكورة، ونظيره التاء المرقق مع أن كليهما لثوي أسناني وقريب من المخرج كما أنه لا يجوز الجمع بين المجهور ونظيره المهموس إذا اتصل به مباشرة.

وقد ذهب بعض السلف إلى أن الأقيس في تاء (فعلتُ) عدم الإطباق، وأن لا تقلب التاء طاءً في صيغة فعلت لأن هذه علامة إضمار وتجيء لمعنى. وقد عدّها سيبويه أعرف اللغتين وأجورها إذا لم نقلبها طاءً، أي أن الاقيس عنده عدم الإطباق[39] وتابعه ابن جني في هذه المسألة بحجة أن هذه التاء ليست متصلة بما قبلها اتصال تاء الافتعال بمثالها الذي هي فيه[40]، غير أن بعض علماء السلف كالرضي مثلاً، أجاز إطباق تاء فعلت ولكن على لغة تميم وقد وصفها بأنها قليلة، إذ قال: "هذه لغة تميم وليست بالكثيرة"[41].

2- الشـدة والرخـاوة

ونستطيع بيانه في معالجة "سـت" التي أصلها (سـدس)، تحوّلت السين الأخيرة تاء فأصبحت (سدت)، وذلك لمجاورة السين، وهو صوت رخو، الدال وهو صوت شديد، لذلك قلبت

السين إلى ما يناظرها في الشدّة، أي إلى نظيرها الشديد وهو (التاء) لمجاورته الدال، فأصبحت (سدت)، ثم قلبت الدال تاءً، وذلك لأن الدال المجهورة جاورت صوتين مهموسين هما السين والتاء فقلبت إلى نظيرها المهموس وهو التاء وأدغمت فيه.

وقد ناقش هذه المسألة كلٌ من سيبويه وابن جنّي فقد أوردها الأول في "باب ما كان شاذاً" فبين أصلها وكثرة استعمالها وتوقف عند السين المضاعفة، وعد الحاجز بينهما ضعيفاً، واستوقفه قرب المخارج إلى مخرج السين فقال: "ست" ، أصلها سدس، وإنما دعاهم إلى ذلك حيث كانت مما كثر استعماله في لغتهم، أن السين مضاعفة وليس بينهما حاجز قوي، والحاجز أيضاً مخرجه أقرب المخارج إلى مخرج السين، فكرهوا إدغام الدال فيزداد الحرف سيناً، فتلتقي السينات ولم تكن السين لتدغم في الدال لما ذكر، فأبدلوا مكان السين أشبه الحروف بها من حيث موضع الدال، لئلا يصيروا مما فرّوا منه إذ أغموا، وذلك الحرف التاء، كأنه قال (سـدتُ)، ثم أدغم الدال في التاء ولم يبدلوا الصاد لأنه ليس بينهما إلا الإطبـأق"[42].

أما ابن جني فقد ذكر في هذه المسألة فوائد فيها التقريب والقلب والإدغام، وهو نوع من التماثل فيما نفهمه اليوم، فيقول: "ست أصلها سدس" فقرّبوا السين من الدال بأن قلبوها تاء فصارت (سدْتُ) فهذا تقريب لغير إدغام، ثم إنهم فيما بعد أبدلوا الدال تاءً لقربها منها إرادة للإدغام الآن، فقالوا: ست فالتغيير الأول للتقريب الأول للتقريب من غير إدغام والتغيير الثاني مقصود به الإدغام"[43].

3- انتقال مجرى الصوت

ويكون على نوعين: الأول: يحدث عن طريق تحوّل مجرى صوت أنفي (كالنون) إلى نظيره الأنفي (الميم) عن طريق تحوّل أحد أصوات الفم تحت وطأة التماثل إلى صوت أنفي وهو الذي أسماه سيبويه الإدغام في الميم في قولهم: "اصحمّطراً" يريد "أصحب مطراً" وعلل سيبويه ذلك بقوله: "لاستعانة الميم بصوت الخياشيم، فضارعت النون ولو أسكنت بأنفك لرأيتها بمنزلة ما قبلها"[44].

أما النوع الثاني فملاحظة سيبويه قول العرب "تقلب النون مع الباء ميماً لأنها من موضع تعتل فيه النون فأرادوا أن تدغم هنا إذا كانت الباء من موضع الميم نحو "مَمْ بك"وشمباء وعمبر، والأصل من بك، وشنباء وعنبر"[45].

والمماثلة هنا حصلت عن طريق تجاور صوتي النون والباء فقلبت النون ميماً لمماثلة الباء، وذلك أن الميم تقع حلقة وصل بين الباء والنون، فالميم تماثل الباء في مخرجها، وتماثل النون في أن الهواء يخرج من الأنف أثناء النطق بها.

وقد عدّ الدكتور سمير ستيتيتّة ذلك من أشكال المماثلة، فقد ذكر المماثلة في موضع النطق وهي أن يتأثر صوت بصوت مجاور، فيصبح موضع نطقه مطابقاً لموضع نطق الصوت المؤثر أو قريباً منه"[46].

4- الانسـجام الصوتـي

وهو ظاهرة صوتية تحدث في مقاطع الكلمة الواحدة نزوعاً إلى التوافق الحركي واقتصاداً في الجهد المبذول "ليكون العمل من وجهٍ واحد"[47] أو أكثر "لتقريب صوت من صوت"[48] كما يرى ابن جنّي.

والانسجام الصوتي ظاهرة من ظواهر التطوّر في حركات الكلمة، فالكلمة المشتملة على حركات مبتاينة تميل في تطوّرها إلى التوافق والانسجام بين هذه الحركات، لئلا ينتقل اللسان من ضم إلى كسر إلى فتح فيما توالى من الحركات، ولهذا فإن الكسرة يناسبها الياء، والضمة الواو، والفتحة الألف.

ومتى اقتصر أمر اللغة على الإنشاد والسمع فلا بد من الاعتناء بالانسجام الصوتي؛ لأنه ضرب من المماثلة الحركية أو التقريب الصوتي، ولذلك نجد ضرباً من هذا الانسجام الصوتي ضمن دراساتهم في الإمالة والإدغام والاتباع الحركي وغيرها.

أما الاتباع الحركي (Vowel Assimilation) فضربٌ من المماثلة وهو تغيّر صوتي يطرأ على صوائت اللغة طروءة على صوامتها.

وهو الذي أطلق عليه سيبويه اسم "الإتباع" وعنى به ميل الحركات إلى التماثل وعالجت تحت باب "ما تكسر فيه الهاء التي هي علامة الإضمار"[49]، وذلك ن هاء الضمير تكسر إذا كان قبلها كسرة أو ياء، ومن المعروف أن أصلها الضم، ومما يستشهد به على أن أصلها الضم قراءة "فخسفنا بهو وبدر هو الأرض"[50]. ومن شواهد ذلك كسر هاء الضمير في (به وعليهم ولديهم وفيهم) وغيرها.

فكما أمالوا الألف في مواضع الاستخفاف كذلك كسروا هذه الهاء، فقد ساوى بين إمالة الألف بكسرة ما قبلها وما بعدها وبين هذه الهاء في نحو كلاب وعابد وذلك في قوله: "مررت بهي قبل، ولديهي مال، ومررت بدارهي قبل ..".

وفي ضوء الاتباع الحركي عالج سيبويه ما عُرف عن قوم من ربيعة من كسرهم هاء الضمير في كل حال وهو ما عُرف بظاهرة "الوهـم" وكذلك لهجة قوم من بكر بن وائل الذين كانوا

يكسرون كاف الضمير بعد الكسر قياساً لها على الهاء وهو ما عُرِف بظاهرة (الوكـم) وسنناقش هاتين الظاهرتين في أثناء حديثنا عن اللهجات.

5- اللـهـجـــات

برز عدد من الظواهر اللهجية بين القبائل العربية، كانت أثراً من آثـار السعي وراء المماثلة نذكر منها:

أ- الوهـم

ويُقصَد به كسر هاء الضمير (هـم) على كل حال، سبقتها كسرة أو ياء، أم لم تسبقها. فيقال: مِنْهِم بكسر الهاء، وعنهم بكسر الهاء[51]. وتُعزَى هذه الظاهرة اللهجية إلى قوم من بني ربيعة[52]. كما أنها لهجة معروفة في الموصف[53] كما نسمعها الآن عند بعض القبائل البدوية الأردنيّـة.

واتصال هذه اللهجة بالمماثلة يرجع إلى أن اللغة الفصحى كانت تكسر هاء الضمير إذا سبقتها كسرة أو ياء، وذلك من أجل إحداث المماثلة، ثم إن بعض القبائل العربية توهّمت أن الهاء مكسورة على كل حال، فكسروها طرداً للباب على وتيرة واحدة وتوهماً في أن الأصل بها هو الكسر.

وقد عللها سيبويه من خلال أن الناطق كسر هاء الضمير لمماثلة الكسرة في من وذلك لأن النون حاجز غير حصين، وذلك لأنها ساكنة.

وقد كانت هذه المرحلة مقدمة لمرحلة أخرى حدث فيها التأثير التقدّمي (Progressive) وذلك في ما يُسمَع من نطق بعض الحضريين (مِنِّم) وذلك أن الأصل (مِنهُم) ثم صارت في بعض الألسنة (مِنْهِمْ) توهماً، ثم أبدلوا الهاء نوناً وأدغموها بالنون التي قبلها[54].

ب- الوكـم

وهو كسر كاف الضمير إذا سبقها ياء فيقال (بِكِم) و (عَلَيْكِـم) وهي ظاهرة عُرِفَت عن ناس من بكر بن وائل إذ اتبعوا الكسر لأنه أخف عليهم من أن يضموا من بعد كسر ، وقد وصفها سيبويه بأنها لغة رديئة، وذكر شاهداً على ذلك وهو قول الحطيئة[55].

وإن قال مولاهم على جَلَ حادث من الدهر رَدَوا فضل أحلامكم رَدَوا

وما حصل هنا أن (بكر بن وائل) قاسوا الضمير (كم) على الضمير (هـم) فكسروه عند الكسر والياء قياساً على (هـم) التي تسكر بعد الكسر والياء طلباً للمماثلة والانسجام الصوتي.

ويمكن القول إن قانون المماثلة قد تدخل هنا فقلبت ضمد ال كاف كسرة لتنسجم مع الكسرة التي قبلها.

جـ- الإمالـة

الإمالة لهجة عامة أهل نجد من تميم وأسد وقيس على حين احتفظت لهجة الحجاز بطابع الفتح وهو ما يقابل الإمالة. ويجدر بالذكر أن الفتح هو الأصل أما الإمالة فهي طارئة، وهي لغة الرسول (ص).

ومن القراءات القرآنية، وُجِدَت الإمالة في قراءة حمزة (156هـ) والكسائي (189هـ). وهي مظهر من مظاهر المماثلة، ذلك أن الألف أو الفتحة عندما تمال لوجود ياء أو كسرة أو لأن أصل الألف ياء، فهذا إنما يعني تقريب الألف لصوت الياء أو الكسرة، أي لإحداث الانسجام الصوتي بتقريب الألف من الياء والفتحة من الكسرة.

وقد لاحظ ابن جني هذا الأمر إذ يقول: "إنما وقعت الإمالة في الكلام لتقريب الصوت من الصوت"[56].

6- الإبـــــدال

وللإبدال أثر في بعض مظاهر المماثلة فمثلاً: من المعروف أن حروف الإطباق وكذلك حروف الاستعلاء من الحروف التي تمنع الإمالة، وهي الصاد والطاء والضاد والظاء، غير أن الصاد تنطق في بعض اللهجات سيناً، ومن هنا فإن الألف لا تمال بعد الصاد غير أنها تمال بعدها إذا نطقت سيناً وذلك في مثل (صالح) عندما تنطق (سالح) أي بإبدال الصاد سيناً.

وكذلك فإن إبدال القاف فاءً بعد حرف ليّن في مثل (زحاليف)، والتي أصلها (زحاليق)، ربما كانت أثراً من آثار المماثلة، ذلك أن القاف حرف شديد وقفي، ومعنى هذا أن الهواء ينحبس خلف عضو النطق. وأن الياء قبلها صوت صائت ينطلق الهواء في مجراه دون أي عارض أو عائق. وبالتالي فإن الانتقال من صوت صائت إلى صوت شديد يشكّل جهداً عضلياً قوياً. وأن إبداله بصوت رخو هو الفاء، تيسير لهذا الجهد وتقليل له. ذلك أن الهواء سيجري في مجراه دون عائق والمماثلة على هذا تقدميّة مباشرة.

ومن الإبدال أيضاً إبدال السين صاداً إذا جاءت قبل صوت من الأصوات المطبقة وذلك من مثل (الصراط) التي أصلها (السراط) وذلك سعياً إلى تقريب السين وهي صوت مُسْتَغِلُ رخو مهموس إلى الطاء وهي صوت مطبق مُسْتَغْلِ.

Assimilation: A Study in Vocalization

Raslan Bani Yasin, ***Department of Arabic Language and literatura, Yarmouk University, Irbid, Jordan.***

Abstract

Assimilation is a process by which sounds are influenced by their neighbours, or replaced by other sounds in the Language. Sometimes you find two neighbouring sounds reacting, as it were upon one another and are replaced by a third sound different from both the original sounds.

In this article I described assimilation between the old Arab grammarian and the modern. Each has his own theory. Included in this article are kinds of assimilation, whether direct or indirect, progressive or regressive. The symptom of Assimilation in old Arabic Dialects are then dealt with.

قدم للنشر في 2003/4/9 وقبل في 2004/9/8

الهوامـــش

1- سيبويه: الكتاب 477/4.
2- السابق نفسه: 478/4.
3- ابن جنّي:الخصائص 144/2.
4- السابق نفسه: 145/2.
5- ابن يعيش: شرح المفصّل 121/10.
6- الاستراباذي: شرح شافية ابن الحاجب 231/3.
7- السابق نفسه: 231/3.
8- السابق نفسه: 232/3.
9- السابق نفسه: 4/3.
10- السيوطي: همع الهوامع 183/6.
11- الأشموني: شرح ألفيّة ابن مالك 601/4.
12- ابن خالويه: الحجة في القراءات السبع 62 وما بعدها.
13- مكي بن أبي طالب: الكشف عن وجوه القراءات 34/1.
14- إبراهيم أنيس: الأصوات اللغوية، 145.
15- علي عبدالواحد واللغة 298 وما بعدها.

16- إبراهيم أنيس: الأصوات اللغوية 178.
17- رمضان عبدالتواب: التطوّر اللغوي، 22.
18- براجشتراسر: التطوّر النحوي للّغة العربية 18-19.
19- محمد الخولي: الأصوات اللغويّة 220.
20- أحمد مختار عمر: دراسة الصوت اللغوي 329.
21- عبدالقادر عبدالجليل: الأصوات اللغوية 283.
22- عبدالصبور شاهين: المنهج الصوتي للبنية العربية 208.
23- علي عبدالواحد وافي: علم اللغة 268.
24- سيبويه: الكتاب 378/4.
25- ابن يعيش: شرح المفصّل 121/10.
26- مكي بن أبي طالب: الكشف 34/1.
27- عبدالقادر عبدالجليل: الأصوات اللغوية 284.
28- إبراهيم أنيس، الأصوات اللغوية، 145.
29- محمد الخولي: الأصوات اللغوية 224.
30- أحمد مختار عمر: دراسة الصوت اللغوي 325.
31- رمضان عبدالتواب: التطوّر اللغوي 25، أحمد مختار عمر دراسة الصوت اللغوي 325، محمد الخولي: الأصوات اللغوية، 220.
32- محمد الخولي: الأصوات اللغوية 219.
33- براجشتراسر: التطوّر النحوي للغة العربية 18-19.
34- سيبويه: الكتاب 436/4.
35- ابن جني: الخصائص 144/2-145.
36- النمل 22.
37- الفراء: معاني القرآن 289/2.
38- ابن جنّي: سر صناعة الإعراب 219/1.
39- سيبويه: الكتاب 187/4 حاشية (3).
40- سيبويه: الكتاب 471/4.
41- ابن جنّي: ستر صناعة الإعراب 219/1.
42- الاستراباذي: شرح الشافية 266/3.
43- سيبويه: الكتاب 481/4-482.
44- ابن جنّي: الخصائص 145/2.

45- سيبويه: الكتاب 461/4.
46- السابق نفسه: 453/4
47- فاطمة أبو النصر: الظواهر الصوتية في قراءة ورش 172.
48- الكتاب: 278/3.
49- الخصائص 142/2.
50- الكتاب: 195/4.
51- القصص81.
52- سيبويه: الكتاب 196/4.
53- السابق 196/4.
54- كاصد الزيدي: في فقه اللغة 230.
55- السابق نفسه 230.
56- الكتاب 197/4.

المصادر والمراجع

القـرآن الكريــم.

الأستراباذي، رضي الدين: **شرح شافية ابن الحاجب**، تحقيق محمد نور ا لحسني ومحمد الزفزاف ومحمد محي الدين عبدالحميد، بيروت، دار الكتب العلمية، 1975.

ابن جني، أبو الفتح: **الخصائص**، تحقيق محمد علي النجار، بغداد، دار الشؤون الثقافية العام، ج2، 1990.

_____:**سر صناعة الإعراب**، دراسة وتحقيق د.حسن هنداوي، دمشق، دار التعلم، د.ت.

ابن خالويه: **الحجة في القراءات العشر**، تحقيق وشرح عبدالعال سالم مكرم، دار الشروق، بيروت والقاهرة، الطبعة الثالثة، 1979.

ابن يعيش: **شرح المفصّل**، بيروت، عالم الكتب، مجلد 2.

أبو النصر، فاطمة: **الظواهر الصوتية في قراءة ورش**، رسالة ماجستير، إشراف الدكتور سمير ستيتيّة، جامعة اليرموك.

أنيس ، إبراهيم: **الأصوات اللغوية**، مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة الخامسة، 1979.

_____: **في اللهجات العربية**، مكتبة الأنجلوالمصرية، الطبعة الرابعة، د.ت.

براجشتراسر: **التطور النحوي للغة العربية**، القاهرة، المركز العربي للبحث والنشر، 1981.

الزيدي، كاصد: **فقه اللغة العربية**، الموصل: جامعة الموصل، 1987.

السمندوي، محمد حسن: **شرح السمندوي على متن الدرّة المتممة للقراءات العشر لابن الجرزي**، مصر: مطبعة المعهد، 1432هـ.

سيبويه: **الكتاب**، تحقيق عبدالسلام هارون، بيروت، دار الجيل، د.ت.

السيوطي، جلال الدين: **همع الهوامع في شرح جمع الجوامع**، تحقيق : عبدالعال سالم مكرم، دار البحوث العلمية، الكويت، 1980.

شاهين، عبدالصبور: **المنهج الصوتي للغة العربية**، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1980.

عبدالتواب، رمضان: **التطور اللغوي**، القاهرة، مكتبة الخانجي، 1981.

عبدالجليل عبدالقادر: **أصوات اللغوية**، عمان، دار صفاء، الطبعة الأولى، 1988.

عمر، أحمد مختار: **دراسة الصوت اللغوي**، القاهرة، عالم الكتب، 1976.

الفراء، أبو زكريا: **معاني القرآن**، بيروت: عالم الكتب.

القيسي، مكي بن أبي طالب: **الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها**، تحقيق: محي الدين رمضان، مؤسسة الرسالة 1981.

وافي، عبدالواحد: **علم اللغة** ، القاهرة، الطبعة الثالثة، 1950.